إمبراطوريات العثمانيين والصفويين والمغول الإسلامية

كتبه: ستيفين دال

كريستين فيليو

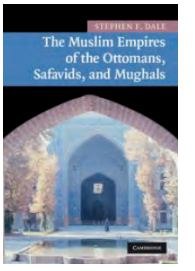

إن الدراسة المقارنة للإمبراطوريات – بلا شك– هي إحدى أسرع المجالات انتشارًا منذ نهاية الحرب الباردة. وقد كان دومينيك ليفن من بين أولئك الذين مهدوا الطريق بإمبراطوريته: الإمبراطورية الروسية ومنافسوها (نيو هافن: مطبعة جامعة ييل، 2000)، والتي تبعتها طبعات لاحقة مثل "إمبراطورية الفرق Empire of Difference لكارين باركي: العثمانيون من منظور مقارن (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 2008)، والإمبراطوريات في تاريخ العالم Empires in World History لجين بربانك وفريدريك كوبر: سلطة وسياسة الفرق (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 2010). في الواقع إن مجال الإمبراطوريات واسع، كما أن الدراسات المقارنة لا حصر لها.

لكن ما تم نسيانه خلال هذه الموجة الأخيرة من الدراسات المقارنة للإمبراطوريات هو المقارنة بين الإمبراطوريات الثلاث العثمانية، والصفوية، والمغولية. جميعها قامت على الأرض وكانت "متقدمة في الحداثة"، وكان يُدعى أن نوعًا مختلفًا من الإسلام سيطر على نظام الحكم فيها. وقد ساد مصطلح "بارود الإمبراطوريات" لمارشال هودجسون الذي يشكل ما يطلق عليه "الأسلمة المنبثقة عن الثقافة" حتى وقت قريب. أما ستيفن ديل، الأستاذ في جامعة أوهايو والمتخصص في التاريخ المغولي، فقد أعاد تقديم هذا الإطار المقارن للإمبراطوريات الإسلامية للعثمانيين، والصفويين، والمغول، وبذلك كتب عملًا تمهيديًّا مترسخًا عن الإمبراطوريات الثلاث الإسلامية، للطلاب والباحثين على حد سواء.

يوضح ديل لماذا لا يعد مصطلح "بارود الإمبراطوريات" لهودجسن كافيًا للربط بين هذه الحالات الثلاث؟ ويرى أنه في حين كان البارود عاملًا حاسمًا في حالة القوة العثمانية ضد الأوروبيين وغيرهم، فإنه لم يكن كذلك مع إمبراطوريات الصفويين أو المغول. وعلى وجه التحديد، يرى أنه "يتم التلميح إلى الفكرة التي تقول إن الأسلحة النارية تسببت في إحداث تغييرات أساسية في تنظيم الإمبراطوريات الإسلامية، ولكن لم يتم تطبيقها بعد على هذه الدول الثلاث" (ص 6). ولا يفضل مصطلح "الحداثة المبكرة"، معتبرًا أنه غامض، كما أن الكثير من السمات المفترضة "للدولة المتقدمة في الحداثة" ليست مقتصرة على تلك الإمبراطوريات. ويفرق ديل بين دراسته ودراسة هودجسون مع التركيز الذاتي على التاريخ السياسي (مستخدما الحكام الأفراد كأداة أسلوبية) و"النخبة الارستقراطية" (ص 7) بدلًا من التركيز على النظم العسكرية المالية. ويقدم ديل "لمحة تاريخية

موجزة عن الإمبراطوريات المرتبطة ثقافيًّا وتجاريًّا منذ تأسيسها، وصعود نفوذها وقوتها الاقتصادية وإبداعها الفني، وحتى اضمحلالها" (ص 7).

من مجموع ثمانية فصول، تتناول الفصول الثلاثة الأولى الأحداث بتتابع زمني، أما الفصول الباقية فتتناول الجوانب الثقافية والتغيير من العصور الذهبية للإمبراطوريات الثلاث حتى اضمحلالها. الفصل الأول يصف المشهد الجغرافي والخلفية التاريخية للإمبراطوريات المغولية، والصفوية، والعثمانية، مع التركيز على الهند وإيران والأناضول من القرن العاشر حتى القرن السادس عشر. ويبحث الفصل الثاني ازدهار هذه "الإمبراطوريات الإسلامية"، أما الفصل الثالث فيستكشف شرعية الملوك والمؤسسات الإمبرطورية (يتم توضيح الفروق بين هذه الإمبراطوريات بطرق مختلفة). الفصل الرابع يتحول إلى اقتصادات الدول الثلاث، أما الفصل الخامس فيتناول بالبحث الثقافات الإمبراطورية، والفصل السادس ينتقل من الثقافة إلى مسألة الانتهاك والإمبراطوريات المقدسة. ويتناول الفصل السابع بالبحث الثقافة الإمبراطورية في العصور الذهبية، وأخيرًا، ينتهي الفصل الثامن بالتمعن في الانهيارات المختلفة للإمبراطوريات الثلاث في القرن الثامن عشر والصراعات المتباينة على السلطة في المناطق الثلاث في القرن التاسع عشر.

في الواقع، إن كتاب ديل تناول بتحليل عميق تاريخ الإمبراطوريات الثلاث، وهناك فائدة كبرى من التمعن في إيجابيات وسلبيات تجميع هذه الإمبراطوريات الثلاث عند المقارنة. وبالتأكيد، فإن مفهوم "العالم الإسلامي" صحيح، حيث يوضح ديل بشكل مقنع جدًّا العديد من النماذج المشتركة؛ الثقافية والفلسفية والدينية والسياسية، والمراجع، والاتجاهات عبر جنوب ووسط وغرب آسيا في هذه القرون. وحتى الآن، تمت صياغة الدراسة بشكل يلقي الضوء على العالم الذي "خسره" المسلمون في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، وربما عن غير قصد، ساهم ديل في خط تفكير "ما الخطأ الذي حدث؟ "What went wrong?" لبرنارد لويس في أعقاب 11 سبتمبر، 2001، والذي أثار جدلًا كبيرًا. إنه يفصل بين هذه الإمبراطوريات الثلاث، ويتجاهل الروابط الحقيقة التي كانت موجودة مع الصين، على سبيل المثال، والأصول المشتركة، والنتائج المختلفة في روسيا. تعد هذه الدراسة أكثر من رائعة في عرض التعقيد وراء الأبعاد النمطية الثنائية القوالب عن الإسلام السائدة اليوم، ولاسيما في تحليل هذه الإمبراطوريات الثلاث، وإطلاق مصطلحات "البارود"، "الحداثة المبكرة" أو "الإسلامية"، وهو ما يعني أن تاريخهم يختلف جوهريًّا عن الإمبراطوريات غير الإسلامية المجاورة لهم. هذا الكتاب مفيد جدًّا، ليس فقط في الدورات العلمية للطلاب، ولكن للعلماء والباحثين، حيث يمكنهم من الحصول على معلومات قيمة ويساعدهم على المقارنة بين هذه الإمبراطوريات والإمبراطوريات الأخرى.